

حارس مقبرة الفوانيس

حمادة حامد محمود نور الدين

أول ورقة استلمها عوض في شغلانته الجديدة ما كانتش عقد شغل، كانت ورقة مثبتة بدبوس على باب أوضة الحارس، مكتوبة بخط عجوز مائل:

«يا عوض بن عبد النبي بن رزق، الفوانيس أمانة.»

عوض قرا اسمه الكامل بالجدين، وهو الاسم اللي محدش في البلد الجديدة يعرفه، لأنه اتعيّن حارس لمقبرة «سيدي الغريب» من تلت أيام بس، والمقابر دي مفيهاش حد يتعرف عليه أصلًا. سأل مختار العزبة اللي جنب المقابر: «الورقة دي مين حاططها؟» المختار بص لها وقال: «دي هنا من زمان. من قبل ما استلم الحارس اللي قبلك، واللي قبله. كل حارس جديد بيلاقي اسمه على الباب. بنقول عادتنا ما نلغيهاش.»

«والخط؟»

«خط واحد. خط الست سكينة، حارسة الفوانيس، اللي ماتت سنة ١٩٥٥.»

عوض ما كانش راجل خرافات. كان راجل سكه حديد متقاعد، خد المعاش بدري، وقبل شغلانة الحراسة دي عشان عايز الهدوء والمقبرة على حد قول أخوه «أهدى جيران في الدنيا». مراته ماتت من أربع سنين، وولاده الاتنين في الخليج، والتليفون بيرن يوم الجمعة بس. فحط الورقة في درج الأوضة، وابتدى شغله: يمشي بين القبور الفجر، ينضف الطرقات، يطفي أي شمعة ولعت من زيارة، وينام بالليل نوم الواد المرتاح.

وفي نهار من النهارات، جت عيلة تزور قبر أبوها، والولاد الصغيرة خافت تدخل. عوض وقف معاهم عند الباب، وقال للصغير: «تعالى ندخل سوا، أنا صاحب المكان.» ومشي معاه لحد القبر، وعلّمه يقرا الفاتحة، وخرجه لأمه سليم. من يومها والزوار اللي بيجوا بيتعرفوا عليه، ويشربوا عنده الشاي في أوضته، ويحكوله عن أمواتهم. عوض كان بيسمع أكتر ما بيتكلم، زي ما القبور بتعمل.

بس في الليلة الرابعة، شاف أول فانوس.

على قبر واحد، في الصف الشرقي، فانوس نحاس قديم منور بضو أصفر هادي. عوض فكرها شمعة نساها زائر، فتح غطاءه يطفيها،

لقى الفانوس جاف. مفيش فتيل. مفيش زيت. والضو لسه شغال، دافي، أصفر، كأن جواه قشطة نار.

اطفى لوحده مع الفجر.

وعوض، اللي ما بيخافش، قام الليلة اللي بعدها يراقب من شباك أوضته. الساعة المغرب بالظبط، فانوس واحد اتنور، على قبر تاني، في الصف الغربي. محدش عدى. محدش مشي. الفانوس نور لوحده، وسط مقبرة فاضية غير منه هو.

وكل ليلة بعدها: فانوس واحد، قبر واحد، يتنور المغرب ويطفي الفجر. عوض جرّب يقعد جنب القبر قبل المغرب بساعة، مكمش زي الصياد. النور جه وما شافش إيد ولا ظل. جرّب يشيل الفانوس من مكانه: طفي، ولما رجّعه نور تاني. جرّب يقفل باب المقبرة بالضبة والمفتاح من قبل العصر: ما فرقتش.

في آخر الأسبوع الأول، عوض بقى مش قادر ينام، ومش من الخوف. من الفضول. نزل الأرشيف القديم في أوضة الحارس، اللي عبارة عن صندوق خشب فيه دفاتر الدفن من سنة ١٩٢٠، وقعد

يقارن. القبر اللي اتنور الاتنين: مدفون فيه راجل اسمه عبد العال الرفاعي، مات ١١ مارس ١٩٤٨. النور كان ليلة ١١ مارس. القبر اللي اتنور الأربع: ست اسمها فاطمة أم كامل، ماتت ١٣ مارس ١٩٦٠. النور كان ليلة ١٣ مارس.

الفوانيس بتتنور في ذكرى الوفاة. كل واحد في المقبرة، في ليلة ذكراه، بياخد فانوسه.

عوض لقى في آخر الصندوق دفتر رفيع، مكتوب على غلافه بنفس الخط المائل: «دفتر الفوانيس - الست سكينة». جواه، بترتيب السنين، كل مقبرة في المقبرة وتاريخ وفاة صاحبها، وجنب كل اسم سطر صغير: «يتنور ليلة ...». ولقى في آخر صفحة مكتوبة، آخر سطر كتبته الست سكينة قبل ما تموت:

«النهاردة ٢ مارس ١٩٥٥، ماتت صاحبة الفوانيس، وما فيش حد ينوّر لها.»

عوض قعد على الأرض جنب الصندوق ساعة طويلة. الست سكينة كانت حارسة المقبرة قبله بسبعين سنة. كانت كل ليلة تنور فانوس

لصاحب ذكرى، زي ما ناس تفتكر أمواتها بالقرآن وبالزيارة، هي كانت بتفتكرهم بالنور. ولما ماتت، ما فيش حد عمل لها اللي كانت بتعمله.

رجع لدفاتر الدفن يدور على قبرها. لقاها مدفونة يوم ٢ مارس ١٩٥٥، «من غير معزّين غير مختار البلد وعياله». ما كانتش متجوزة. ما فيش حد يفتكرها. عوض قفل الدفتر وقال بصوت عالي في الأوضة الفاضية: «لا يا ست سكينة. في حد.»

والفوانيس اللي بتتنور لوحدها من يومها لحد النهارده؟

عوض ما سألش السؤال ده لحد. بعض الأسئلة جوابها الوحيد إنك تكمّلها. بدل ما يسأل مين بينور، قرر يبقى هو اللي بينور. طلّع من المخزن عدد الفوانيس اللي لقاها، غسلهم واحد واحد، ملاهم زيت، وابتدى من ليلة ٢ مارس، ذكرى الست سكينة، ينور فانوس على قبرها المتواضع في آخر الصف، اللي مكتوب عليه بس: «سكينة، حارسة الفوانيس».

ومن الليلة دي، الفوانيس اللي كانت بتتنور لوحدها بطلت تتنور لوحدها.

بقت بتتنور بإيد عوض. كل ليلة، قبل المغرب بربع ساعة، يطلع بالدفتر الرفيع، يشوف صاحب الليلة مين، يحمل الفانوس، ويمشي بين القبور لحد ما يوصل، ويحط النور، ويقول بصوت واطي: «منورلك الليلة يا عم فلان، انت مش منسية.»

والناس اللي بتعدى من برّه سور المقبرة بقت بتشوف كل ليلة نور واحد صغير جوّا، وتحكي. وعوض ما صححش الحكايات. خلّي الناس تقول اللي يعجبها، هو عارف الحقيقة: إن الفوانيس بطلت تشتغل لوحدها لأنها لقت حد يشتغلها، وإن الست سكينة بقت متنورة كل ليلة، لأن عوض ما بقاش بينورها في ذكراها بس، بقى بينورها كل ليلة مع صاحب الليلة، «عشان الصاحبة تبقى واقفة جنب ضيوفها».

وفي ليلة من ليالي الشتا، وعوض ماشي بين القبور بالفانوس، لقى على باب أوضته ورقة جديدة مثبتة بالدبوس، بنفس الخط المائل القديم:

«كده يا عوض. كده الفوانيس في أمانة.»

عوض ابتسم في العتمة، وعلق الورقة جنب الأولانية جوّه الأوضة، وكمّل مشيته، والنور الصغير قدامه بيهز في الريح وما بينطفيش.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app